﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ [الشُّعراء: 137 - 140]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

تعلُّلُ قومِ عادٍ بتمسُّكهم بدينِ آبائِهم سببٌ للصَّدِّ عن نبيِّهم هودٍ عليه السلام

لمّا صدَّت عادٌ عن دعوة نبيّها هودٍ عليه السلام، واستخفَّت بوعظِه إيّاهم حين دعاهم إلى عِبادةِ اللّه، وذكَّرهم بنعمه عليهم، وقالوا له: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الشعراء: 136]؛ أيْ: لن نستجيب لوعظِك؛ فلا تُرهِقْ نفسك، وكانَ قولُهم هذا يحتاج إلى تعليل، بادروا إلى بيان سببِ هذا الإعراض عن دعوتِه فقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾؛ أي: السّببُ هو تمسُّكنا بدين آبائنا الّذين قضَوا وماتوا وهم مُستمرّون عليه، ونحن لن نَحيدَ عن دينهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خُلُقُ﴾: (خلق) أَصلُ الكلمَةِ من الخَلْقِ؛ وهو: تَقْديرُ الشَّيْءِ، ومنه سُمّيَت الطِّباعُ والسَّجايا ونَحْوُها أَخْلاقًا؛ لأنَّ صاحِبَها يَنْشأُ ويُقَدَّرُ عليها؛ فتَصيرُ لَهُ كالخِلْقَةِ[1]، والخُلُقُ: الطَّبْعُ والسَّجيَّةُ، وهو ما فُطِرَ عليه الشَّخْصُ من صِفاتٍ دون إرادَةٍ منه، سَواءٌ كان حَسَنًا أوْ سَيِّئًا، يُقال: أَخْلَقَ الرَّجُلُ، وتَخَلَّقَ، وخَلُقَ: إذا صارَ ذا أَخْلاقٍ[2]، وكلُّ موضعٍ استعمَل الخُلُقُ في وصف الكلام فالمُراد به الكذِبُ[3]، ويأتي الخُلُقُ بمعنى الدّين؛ يُقال: فُلانٌ صاحِبُ خُلُقٍ؛ أيْ: صاحِبُ دينٍ[4]، والمُراد بـ ﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: عادتُهم وشأنُهم ودينُهم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ تاج العروس: (خلق).
(3) الرّاغب، المُفردات: (خلق).
(4) الجُرجانيّ، التّعريفات، ص: 105، والمُناويّ، التّوقيف على مُهمّات التّعاريف، ص: 159.

2) ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: أصلُ (أول) يدلُّ على ابْتِداءِ الأَمرِ؛ فالأَوَّلُ: مُبْتَدَأُ الشَّيْءِ، والمُؤَنَّثَةُ الأولَى[1]، يُقالُ: أوَّلُ المَطَرِ قَطْرَةٌ؛ أيْ: بِدايَتُهُ، والأَوَّلِيَّةُ: ابتِداءُ الشَّيءِ، ويُطلق الأوَّل أيضًا على الواحِد، يُقالُ: جاءَ النّاسُ أوَّلًا فأَوَّلَ؛ أيْ: بالتَّرتيبِ الواحِد بَعْدَ الآخَر، ويُستَعْمَلُ الأوَّلُ بمعنى القَديم؛ كقولهم: ما تَرَكَ لَهُ أوَّلًا ولا آخِرًا؛ أيْ: قَديمًا ولا حديثًا[2]، والمُراد بالأَوَّلينَ في الآية: السّابقونَ المُتقدِّمونَ مِنْ أسلافِهم.

3) ﴿لَأٓيَةٗۖ﴾: أصلُ الآية العلامةُ الثّابتة مِن قولك: تأَيَّيْتُ بالمكان إذا أقمتُ به وثبتُّ فيه، ومن ثَمَّ يُقالُ: لأجعلنَّك آيةً؛ أيْ: علامةً، مُشتقَّةٌ مِن التَّأَيّي الَّذي هو التَّثبُّت والإقامة على الشَّيء[3]، تَقولُ: خَرِبَتْ دارُ فُلانٍ وما بَقيَ فيها آيَةٌ؛ أيْ: عَلامَةٌ، ومنه سُمّيَت الآيَةُ مِن القُرْآنِ بذلك؛ لأنَّها عَلامَةٌ لانْقِطاعِ الكلام الَّذي قَبْلَها والّذي بَعْدَها، وتُطلَقُ على المَصْنوعِ المُعْجِب؛ لِأَنَّهُ يكونُ علامةً على إتقانِ صانِعِه أَوْ عَظَمَةِ صاحِبِه[4]، وكذلك تُطلَقُ على الحُجَّةِ المُثبَتَة؛ لأَنَّها علامَةٌ على ثُبوتِ الحَقِّ، وتُطلَقُ أيضًا على العِبْرَةِ؛ وهي أمرٌ وقعَ ومضى لكنْ بقيَ ما يُتَّعَظ به منه ويُتَّخذ مَثَلًا[5]، والآية هنا مُرادٌ بها الدّليلُ على قُدرة الله تعالى في شِدَّةِ بَطْشِه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإصـــرارُ على التَّكذيبِ سببٌ للإهلاكِ وسوءِ العاقبةِ

قال قَومُ هودٍ لِنبيِّهم: ما هذا الدّين الَّذي نحن عليه إلّا دين الأوَّلين من الآباء والأجداد، فنحن سالكونَ سبيلهم، نعيشُ كما عاشوا، ونموتُ كما ماتوا، فلا بعْثَ ولا مَعاد، ولا ثوابَ ولا عِقابَ، ولا جنَّة ولا نار، فكذَّب المُشركون مِن قَومِ عادٍ رَسولَهم هودًا،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أول).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (أول).
(3) الخليل، العين، والرّاغب، المُفردات: (أى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أيَى).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (إيي - إي).

فأهلَكْناهم في الدُّنيا، إنَّ في إهلاكِ قَومِ هودٍ لَعِظةً وعِبرةً ودَلالةً واضِحةً على صِدقِ رسولِه، ولم يكُنْ أكثَرُ قَومِ هودٍ مُؤمِنينَ حقًّا، معَ وجودِ الآياتِ المُقتَضيةِ لإيمانِهم، وإنَّ رَبَّك يا مُحمَّدُ ﷺ لهو العزيزُ القاهِرُ الغالِبُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يعاجِلُهم بعَذابِه، ومِن رحمتِه أنَّه يُرسِلُ رُسُلًا، ويُنزِلُ معهم ما يُبَيِّنُ به ما يُرضيه وما يُسخِطُه، فلا يُهلِكُ قومًا إلّا بعد إعذارِهم، ومِن رحمتِه أنَّه يُنجّي أتْباعَ رُسُلِه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلّةُ فصْلِ الآية عمّا قبلها:

التّعليلُ بيانٌ للجحودِ والإنكارِ

جملة ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تعليلٌ لما تضمنه قولُهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الشعراء: 136]؛ فكأنّهم سُئلوا عن سبب هذا القول الّذي دلَّ على موقفهم الرّاسخ في الإعراض عن دعوة نبيِّهم هودٍ عليه السلام، فكان هذا القولُ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ جوابًا عن هذا السُّؤال، وبهذا يكونُ بين الجُملتيْن استئنافٌ بيانيٌّ، وهو ما يُعرَفُ بشِبْه كمال الاتّصال.

معنى ﴿إِنْ﴾ في قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾:

﴿إِنْ﴾ في جملة: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ نافيةٌ بمعنى (ما)، ولا عملَ لها لوقوع ﴿إِلَّا﴾ في حيِّزها، فيَنتَقِضُ النّفيُ، ويبطلُ العملُ القائمُ على المُشابهةِ بـ(ليس).

تحديدُ مرجعِ الإشارةِ في قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾:

تعـدُّدُ المرجعِ لتعدُّدِ القراءاتِ في (خلق) وتعدُّدِ معانيهِ

يختلفُ تحديدُ مرجعِ اسمِ الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ باختلاف القراءة، فقد قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو والكسائيُّ وأبو جعفر ويعقوب ﴿خَلْقُ﴾ بفتح الخاء وإسكان اللّام،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 614، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 125، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 153، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 88.

ومعناه الاختلاقُ والكذِبُ؛ وعلى هذه القراءة؛ فالإشارة بقولِهم ﴿هَٰذَآ﴾ إلى ما دعاهم إليه هودٌ ﷺ من تقوى الله وطاعتِه وما جاءَهم به من عند الله، والمعنى: (ما هذا الَّذي دعوتَنا إليه إلَّا اختلاقُ الأوَّلين وكذبُهم، ونحن لن ننصاعَ لاختلاقِهم وكذبِهم)، فيكون ذمًّا لِمَا جاء به هودٌ ﷺ، ونَلمَح في الإشارة باسمٍ موضوعٍ للإشارة إلى القريب دلالةَ الاستخفاف والتّهكُّم بما جاءهُم به من الآيات والأحكام.

ويجوز أن يكون (الخَلْقُ) بمعنى: الإنشاءِ والتّكوين؛ فالإشارة إلى ما توَعَّدهم به من الهلاك والعذاب، والمعنى: "ما هذا الَّذي نحن فيه إلَّا عادةُ الأوَّلين في حياة ناسٍ وموتِ آخَرين، وعافيةِ قومٍ وبلاءِ آخَرين"[1] وهو كنايةٌ عن التَّكذيب بالبعث، والإشارة في هذا إلى الخَلْقِ الَّذي هم عليه؛ أيْ: إنَّ حياتَنا كحياة الأوَّلين؛ نَحْيا ثُمَّ نموت ولا نُبعث[2].

وقرأ الباقون: ﴿خُلُقُ﴾ بضم الخاء واللّام[3]، وهو العادة والإلفُ؛ وعلى هذه القراءة فإنّه يمكن أن تكون الإشارة إلى ما هم عليه، وبيان سبب تمسُّكِهم بعادة آبائهم ودينهم، والمعنى: (ما هذا الَّذي نحن عليه وتدعونا إلى التّخلّي عنه إلّا ﴿خُلُقُ﴾ آبائنا ودِينُهم، ونحن على عهدِهم ماضُون)؛ فيكون الكلامُ مدحًا لِمَا هم عليه ولِمَا كان عليه آباؤهم من قَبلِهم.

ويجوز أن يكونَ المَرجِع ما يدعوهم إليه من مُعتقَداتٍ وأوامر، ما هي إلّا من خُلُقِ وعقائدِ أقوامٍ عبَر عليها وانتحلَها وليس من أمر الله في شيء[4].

دلالةُ التّعريفِ بالإشارةِ دونَ الضَّميرِ:

يختلفُ الغرضُ المراد باختلافِ مرجعِ اسمِ الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ فإن كان مرجعُ اسم الإشارة عادةَ آبائِهم ودينَهم فقد قصَدوا به المدح لأنفسِهم، وإنْ كان المَرجِع إلى ما يدعوهم إليه؛ فالمُرادُ الذمُّ لنبيِّهم؛ لانتحالِه ما سار عليه الأوّلونَ ونسَبِهِ لنفسه، وهما معنيان مُترتّبانِ على قراءة ﴿خُلُقُ﴾ - بالضّم - بمعنى:

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 14/ 72، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 257، ومكّيٌّ، الكشف عن وجوه القراءات السَّبع: 2/ 151، وابن خالَوَيْه، الحُجّة في القراءات السَّبع، ص: 268.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 173.

(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 235.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 172.

العادة، والغرض من التّعريف بالإشارة دون الضَّمير تمييز المُشار إليه بإحضارِه مَحسوسًا مُشاهَدًا تقويةً لِادّعائِهم الكاذب، وحرصًا منهم على أنّه دليلٌ حِسّيٌّ لا يقبل العَذْل والمَلامةَ.

التّعريفُ باسمِ الإشارةِ يَحتمِلُ المدحَ والاستحسانَ، ويحتملُ الذَّمَّ والاستهجانَ

وإن كان مَرجِعه إلى المَعنَيَيْن المُترتّبَيْن على قراءة (خَلْق) وهما: الكذب والإنشاء، فقد قصدوا به الذَّم والادّعاء حتّى صار ما يدعوهم إليه من أوامرِ اللّه حاضرًا مُشاهَدًا، وما هُم عليه من حالةٍ كحال السّابقين في عدم البعث أمرًا مُتميِّزًا لا يقبلُ النَّقضَ والاختلال.

معنى أداة الاستثناء في: ﴿إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾:

وما ادّعاءُ الكافرينَ إلّا في ضلال

عبّر النظمُ الجليل بـ﴿إِلَّا﴾ في تركيب: ﴿إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وهي هنا أداةُ استثناء للقَصر، والقَصر إضافيٌّ من قَصر الصِّفة على المَوصوف، وهو مفيدٌ للتّوكيدِ؛ فيكون تقويةً لادّعائِهم وتعميقًا لبيانِهم.

دلالةُ التّعبير بـ﴿خُلُقُ﴾:

تنوُّع المعنى المُعجميّ وثراءُ المعنى القرآنيّ

الخُلُق (بضمّتين): السّجيّة المُتمكِّنة في النّفس، الباعثةُ على عملٍ يُناسبُها من خيرٍ أوْ شرٍّ[1]، والخَلْق (بفتح الخاء وسكون اللّام) هو الاختلاقُ والكذب، والإنشاء والإيجاد، ونظرًا لتعدُّد المعنى؛ احتملَ اسم الإشارة أكثر من مَرجِعٍ ودَلالةٍ، وانضوَى السّياق على دلالاتٍ وأغراضٍ مُتعدّدةٍ.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾:

لفظ (الأولين) يحتملُ المدحَ والذَّمَّ

عبّروا بلفظ الأوّلين في قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وأرادوا به آباءَهم وأسلافَهم الأقدمين، إشارةً إلى أنّهم على سُنَّتهم وعادتِهم وعهدِهم ماضون، وأنّهم بهم مُحتجّون، فكما ورِثوا منهم عاداتِهم وطبائِعَهم، فكذلك يَرِثون دينَهم؛ فهو مدحٌ لهم، أوْ مَن سبقوهم بالوجود سواءٌ كانوا أسلافًا أم لا، ويحتمل الذَّمَّ والانتقاصَ منهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 171.

نكتةُ التّوكيدِ بالقَصْرِ:

التّأكيدُ بالقَصْرِ مُـؤشِّـرٌ على صلابةِ موقِفِهم وعنادِهم

جاءتْ جملةُ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ لتبيِّنَ إرادةَ الكافرينَ في التعبيرِ عن صلابةِ موقفِهم من دعوة نبيِّهم؛ فأوردوا الكَلام بطَريق الحَصْر مُبالَغةً في الإنكار، وتعصُّبًا في العِناد والاستكبار[1] على مَعنى: ما هذا الَّذي نحن عليه وأنت تُنكِرُهُ إلّا خُلُقُ آبائِنا ودينُهم، ونحن مهما قُلتَ أوْ عملتَ؛ فلن نَحيدَ عن طريقهم.

أوِ المعنى: (ما هذا الَّذي جئتَ به إلّا خُلُق الأوّلين)؛ يعني: عادة مَنْ سبقوك واختلاقُهم، يقصدون الرُّسُلَ السّابقين كما قالوا: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [النّمل: 68][2].

والاستثناء بعد النفي هو أقوى طُرُق القَصْر والحَصْر، وإنّما يواجَه به أشدُّ المخاطَبين إنكارًا.

معنى الواو في: ﴿وَمَا نَحْنُ﴾:

تـعـدُّد المعنى والقراءةِ وأثرُهُما في تحديدِ نوعِ العطفِ

في جملة: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ جاءتِ (الواو) عاطفةً لجملةِ النّفي على ما قبلَها؛ أيْ: على الجُملة المَنفيَّة لفظًا، المُثبتَةِ معنًى ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، ويَحتَمِلُ العَطفُ عَطفَ المُغايَرة، إنْ كان (الخُلُق) بالضَّم أو (الخَلْق) بالتّسكين بمعنى: الكذب، أو أنَّه عطفُ تفسيرٍ لقولهم: (إنْ هذا إلّا خَلْقُ الأوَّلينَ) إن كان (الخَلْق) بالتَّسكين بمعنى: الإنشاء والإيجاد[3].

معنى الباءِ في ﴿بِمُعَذَّبِينَ﴾:

الكُفّار يُؤكّدون - غُرورًا وافتخارًا بكُفرِهم - أنّهم لن يُعذَّبوا

الباء زائدة لتأكيد نفي التّعذيب، وقد قصَدوا بهذا التّأكيد ردَّ كلامه حين قال لهم: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 286.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10640.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 173.

﴿١٣٥﴾ [الشُّعراء: 135]، كما قصَدوا إنكارَ هذا العذاب[1] الَّذي يُشير إليه ويُحذّرهم من وقوعه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ:

من بلاغة التَّعبير بالجملة الاسميّة في جملة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ الدّلالة على وثوقهم الكامل في أنّهم لن يُعذَّبوا أبدًا، فهذا بالنّسبة لهم حكمٌ مُؤكَّد راسخٌ لا يتزحزح.

دلالةُ نفيِ التّعذيب في قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾:

الكُفّار يُؤكّدون - غرورًا وافتخارًا بكفرهم - أنّهم لن يُعذَّبوا

من الدّلالات الَّتي تُؤخذُ من التّصريح المُؤكَّد بنفي تعذيبهم في قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ إضافةً لما سبق ثلاثةُ أمورٍ أخرى، أوّلُها: أنّهم لغرورهم يُقرّرون أنّهم لا يُعذَّبون، وليس من شأنهم أن يُعذَّبوا، وثانيها: إنكارُ البعث، وتلك خُلّة الكافرين، وثالثها: أنّه إنْ كان هناك بعثٌ فلن يكون العذابُ نصيبهم؛ بل تكون حالُهم في الآخرة هي حالَهم في الدُّنيا[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المفعولِ في قوله: ﴿بِمُعَذَّبِينَ﴾:

إنكارُ تعذيبهم يَـشي بجُحود المُعذِّب

أمّا التَّعبير بصيغة المفعول بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾؛ فلأنَّهم يَكفُرون باللّه سبحانه، وهو المُعذِّب لِمَن يَستحِقُّه، ويُنكِرون الآخِرةَ وهي دار العذاب والجزاء، فلأجْلِ هذا لم يُسنِدوه إلى فاعل، فلم يقولوا: (لن يُعذِّبنا اللّه)، كما يَحتمِلُ أنّ موضوع العذاب غيرُ مطروح أصلًا، سواء كان هناك معذِّب أو لا؛ فإنَّ العذاب لن يَطالَهم؛ لأنّهم صالحونَ وماضونَ على طريقة أسلافهم في الهداية والصَّلاح، فتكونُ جملةُ النّفي كنايةً عن رشادِهم وهدايتهم باتِّباعهم آباءَهم.

معنى (الفاء) في: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

الإنكارُ والتَّكذيبُ صِـفـتـان مُتلازمتان

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فصيحةٌ عاطفةٌ على مُقدَّر؛

(1) ابن التَّمجيد والقونوي، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 287.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5387.

أيْ: فنصح لهم ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾[1]، أو فتَبيَّن بعدَ كلامهم أنَّهم قد كذَّبوه، وفائدةُ العطف بها اتّصافٌ بأمرٍ على حالةٍ سابقةٍ وإفصاحُ حالةٍ عن موقفٍ سابقٍ، وذلك يُفيد أنَّ مُجرَّدَ القول والتلفُّظ بالكلام السّابقِ لنبيِّهم أنَّهم مُكذِّبون له رادّون لدعوته وخطابِه لهم، فيتعانقُ الإنكارُ والتَّكذيب ليُشكِّلا حلقتيْن مُتّصلتيْنِ لا انفكاكَ بينهما.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضعّف في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

المبالغةُ في التَّكذيبِ شأنُ الجاحدين

التَّعبيرُ بالفعل المضعّف في قوله سبحانه: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ دالٌّ على إصرارهم على ذلك التَّكذيب، وأنّهم لم يُعِدّوا سواه لمواجَهة دعوة هود عليه السلام، فلم يكن في نيّتِهم أن يُقيموا معه حوارًا إقناعيًّا، ويكشف عن ذلك اختيارُهم صيغةً صرفيَّةً تفيد الكثرة والمبالغة في التَّكذيب والإنكار، وبذلك يتناسقُ كلامُهم فيما سبق مع فعلِهم والمبالغةِ فيه.

نكتةُ الإسنادِ إلى ضميرِ الجماعةِ في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

التَّكذيبُ وقعَ منهم جميعِهم

في إسناد التَّكذيب إلى ضمير الجماعة في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ دلالةٌ على أن التَّكذيب وقع منهم جميعِهم، وأنَّهم قد أطبَقوا على هذا الموقف من الكُفر والتَّكذيب؛ ولذلك حلَّ بهم عذابُ الاستئصال الَّذي استأصل جميعَهم؛ فلم يَبقَ منهم أحدٌ.

معنى الفاءِ في: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾:

التّعليلُ طريقٌ للإقناعِ

الفاءُ عاطفةٌ لجملة ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ على ما قبلها، ومُرتّبةٌ إيّاها عليها، ومفيدةٌ للسّببيَّة، فكان الإهلاكُ جزاءً للتّكذيب، ومُسبّبًا عنه؛ أيْ: بسبب أنّهم كذَّبوا بنبيِّهم مُجمِعين على ذلك ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾، وبهذا نلحَظ الفرقَ بين الفاء الفصيحة والفاء السّببيَّة؛ إذ الفصيحة تُنبِئ عن الفعل الحاصل سلفًا؛ لأنّ مُجرَّد الرَّدِّ والاعتراض تكذيبٌ، بخلاف الإهلاك؛ فإنَّه مُترتِّبٌ على التَّكذيب وليس عينَه، وتُنبِئُ الفاء السَّببيَّةُ عن سرعة الإهلاك عَقيبَ التَّكذيب.

(1) الخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 19/ 213.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإهلاكِ:

كـان هلاكُـهـم بـالـرّيـحِ دَفـعـةً واحدةً

عبَّر السّياق الحكيم بالإهلاك في ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ﴾ للدّلالة على وقوع الهلاك بهِم شديدًا مرةً واحدةً ليكون أفجعَ لهم، فلفظُ (هلك) يَدُلُّ على كَسْرٍ وسُقوطٍ، والهَلاكُ: هو السُّقوطُ[1]، والسّقوط إنّما يكون مرَّةً واحدةً لا تَدَرُّجًا، وكان هلاكُهم بالرّيح الشّديدة الَّتي اقتلعَتْهم وأغراضَهم وزرعَهم، كما تَقتلِع النَّخل من جذورها، وقد قال الله تعالى عن ذلك: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ٢١﴾ [القمر: 19 - 21]، وبذلك عُلِم أنَّ التَّكذيب قد مرَّ بمراحل وعاملهم الله بحِلْمِه، ولكنَّه لمّا أخذهم أهلَكهم دَفعةً واحدةً، ولذا تغايَر فِعْلا التَّكذيب والإهلاك.

دلالة الإسناد إلى ضمير العظَمة:

مـا يُـسـنَـد إلى العظيم عظيمٌ

أُسنِد الإهلاك إلى ضمير العظَمة في قوله تعالى: ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ﴾ للإشعار بفظاعتِه وهَوله، إذ ما يُسنَد إلى العظيم عظيمٌ، سواءٌ في مَقام الثَّواب أم في مَقام العِقاب، وأفاد هذا الإسنادُ أنَّ الله تعالى يُدافعُ عن أنبيائِه ورُسلِه، فلا يَتركُهم في ساحة الدَّعوة من دون نُصرةٍ وإعانة.

نكتةُ إيقاعِ الإهلاكِ على ضميرِ الجماعةِ:

هـلـكـتْ عـادٌ بـالاسـتِـئـصـالِ الـشّـامـلِ لجميعِهم

في إيقاع الإهلاكِ على ضمير الجماعة في قوله تعالى: ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ﴾ تنبيهٌ على أنّه كان عِقابًا شاملًا لجميعِهم، فهو عقاب استئصالٍ لم يُبقِ منهم أحدًا، كما قال سبحانه مُخبِرًا عن عقابهم: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ١٥ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هلك).

عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فُصِّلت: 15 - 16]، وقال عزَّ شأنُه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: 24 - 25]، وبذلك تحقَّقت المُغايَرةُ بينَ مفعولَيْ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ و﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۚ﴾ إفرادًا وجمعًا كما تحقَّقت على مستوى الصّيغة الفِعليَّة والفاعل؛ إذِ التَّكذيبُ قد توجّه لنبيِّهم؛ فوقع الإهلاكُ لجميعِهم، وصَدَر التَّكذيب منهم مُتدرِّجًا؛ فكان الإهلاكُ دَفعةً واحدةً لِمَنْ لا يُعجزهُ شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء، وفي تلك المُغايَرة بين الجُملتيْن إشارةٌ إلى أنّه لا مُقارنةَ بين فعلِ الكافرين وفعلِ الله تعالى بهم.

علّةُ فصلِ الجملةِ:

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا هدفُه الإرشادُ إلى مَوطن العِبرة في إهلاكِهم، ليَفيدَ منه كلُّ مَن يصلُحُ للاعتبار؛ فإنّ الاعتبارُ من أغراضِ القصّةِ القرآنيّةِ.

دلالةُ في الجارّة في قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾:

المَـجـازُ يـرسـمُ أبعادًا للمعنى

حرف الجرِّ ﴿فِى﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ﴾ للظّرفيَّة المَجازيَّة، والتَّعبير بها مُفيدٌ للتَّمكُّن والكفاية والشّمول؛ أيْ: فيما وقَع لهم من عذابٍ ما يكفي للاعتبار والاتِّعاظ لكلِّ كافرٍ بالله، مُتمرِّد على رُسُلِ الله عليهم السلام.

نكتةُ التَّعبيرِ بإشارةِ البعيدِ:

تعظيمُ العذابِ النّـازلِ بهم مقابلَ التَّهكُّمِ بالدَّعوةِ

دلَّت الإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ﴾ على شدَّة ما حلَّ بهم من عذاب الاستئصال، وبُعد منزلته حتّى صار يُشار إليه باسمٍ موضوعٍ للبعيد تفخيمًا؛ إذ ﴿ذَٰلِكَ﴾ اسم إشارةٍ للبعيد مؤذنٌ ببُعد منزلة هذا الإهلاك الَّذي حلَّ بهم في استئصالهم

وإبادتِهم واقتلاعِهم من جذورِهم؛ فالإشارة في ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى المَصدر المفهوم من الفعل (أهلكنا) وهو الإهلاك الَّذي حلَّ بهم، ونُلمِح إلى طباق خفيٍّ بين اسم الإشارة ﴿هَٰذَآ﴾ الوارد أوَّل الآية، و﴿ذَٰلِكَ﴾؛ فإن كانوا قد استهزأوا بما دعاهم إليه باسم الإشارة للقريب أو مدَحوا ما هُم عليه من عادات؛ فإنَّ ما نَزَل بهم أمرٌ عظيمٌ شديد الأثر والتَّأثير، ولمّا كان الغرضُ المقابلةَ بينَ الاسمَيْن؛ عدلَ عن (ذلكم) إلى ﴿ذَٰلِكَ﴾.

دلالةُ (اللّام) في قوله: ﴿لَأٓيَةً﴾:

(اللّام) في قوله: ﴿لَأٓيَةً﴾ هي لامُ الابتداء الَّتي يُقال لها: المُزحلَقة كراهةَ اجتماعِ تأكيدَيْن أوّلَ الكلام - وفائدتُها التّأكيد - ليتقابلَ توكيدُ إنكارهم وجحودِهم مع توكيد عذابِهم الَّذي استحقّوه واستوجبوه.

تأكيدُ العذابِ مقابلَ تأكيدِ الإنكارِ

نكتةُ التَّعبيرِ بـ (آية) دونَ (دليل):

عبَّر بـ ﴿لَأٓيَةً﴾ دون (دليل) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً﴾؛ لأنَّ التَّعبير بالآية أعمُّ وأوسَعُ، فما الدّليل إلّا أحد معانيها، فالآية هي الدّليل، وهي العلامة، وهي العِبرة، وكلُّ هذه الدّلالات والمعاني متوفِّرة في الإهلاك الَّذي حلَّ بقوم هودٍ ﷺ، كما تُعطي (الآية) معنى الدّلالة الظّاهرة الَّتي لا سبيلَ لإنكارها وجَحْدها، بخلاف (الدَّليل) الَّذي قد يكون خفيًّا مُحتاجًا إلى التَّأمُّل.

التَّعبيرُ بالآيةِ أشملُ وأظهرُ من التَّعبيرِ بالدّليلِ

دلالةُ التنكير في قوله: ﴿لَأٓيَةً﴾:

نكَّر الذِّكْرُ الحكيمُ كلمة ﴿لَأٓيَةً﴾ تفخيمًا لأمرِها وتهويلًا لشأنِها، وأنّها وحدَها لعِظَم ما فيها كافيةٌ في ردع الكفّار عن كُفرهم، وفي تنكيرها مقابلَ تعريف ﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تقابُلٌ بين الفَخْم العظيم النّازل والاستخفاف والتّهكُّم في نسبة الكذِب إلى نبيِّهم، أو في وضوحِ نسبةِ العادات الطيِّبة إلى أسلافِهم وما هُم عليه مع أنَّها ليست واضحةً ولا بيّنةً.

التّفخيم مقابلَ التّهوين

معنى (الواو) في: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

العطفُ بالجُمَل المُتقابِلةِ دليلُ العَظَمَةِ

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ﴾ عاطفةٌ للجُملةِ المَنفيَّة: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ على الجملة المُثبَتة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾ وذلك في مُقابِل عطف الجُملة المَنفيّة ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على الجملة المُثبَتةِ معنًى ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، والغرضُ من القلب بين الجُمَل المتعاطفة الإشارةُ إلى أنَّ قولهم وفِعلهم لا يُقارَن بشيءٍ من قول الله وفعله العظيم، وقيل: هي واو الحال[1].

دلالةُ نفي الوجود في قوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾:

تـوكـيـدُ النَّـفي يُحقّق التَّوازن

﴿وَمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ نافيةٌ نفت الإيمان عن أكثرهم، وأُقحِمت ﴿كَانَ﴾ بعدها للتّأكيد كما هو رأي سيبويه والمُحقِّقين، وليست هنا زائدةً لعدم وقوعها في أسلوبِ التّعجُّب المُتوهَّم، أو بينَ شيئَيْن مُتلازمَيْن كما هو المعهودُ عند زيادتها، ونحسبُ أنَّ الإتيان بها أفاد أنَّ جحودهم وعدمَ إيمان أكثرهم ليس وليدَ المرحلة الحاضرة؛ بل يعود إلى أسلافِهم ويمتدُّ إليهم، وبذلك يتحقّقُ التَّقابُلُ بينَ ما نسبوه لآبائهم من عاداتٍ حسنةٍ وخِلالٍ طيّبةٍ إلى نسبة الكُفرانِ لأكثرِهم وأكثرِ آبائهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بمادّةِ الكثرةِ في قوله: ﴿أَكۡثَرُهُم﴾:

التَّعبيرُ بالكثرةِ لـلاحـتراسِ، ولإفادةِ أنَّ قليلًا منهم مُؤمِنون

نفى القرآنُ الكريم الإيمانَ عن أكثر قوم هود وليس عن جميعهم في قوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ إنصافًا واحتراسًا، وفيه تنبيهٌ على أنَّ قليلًا منهم كانوا مؤمنين؛ وهم النّاجون من هذا الهلاك الّذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٧٢﴾ [الأعراف: 72]، ولذا عبَّر بصيغة اسم التّفضيل (أفعل) في ﴿أَكۡثَرُهُم﴾ تمييزًا لغير المؤمنين عن المؤمنين ببيان أنَّهم الأكثرُ عددًا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 102، والخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 19/ 108.

نكتةُ الإضافةِ إلى ضميرِ الجمعِ في قوله: ﴿أَكۡثَرُهُم﴾:

كثرةُ أهلِ الكفرِ مقابِلَ قلةِ أهلِ الإيمانِ

التفوُّق العدديّ في كلِّ زمانٍ هو لأهل الكُفر؛ لغلبةِ سُلطان الهوَى والغفلة عن الأدلّة المُخاطِبة لعقولهم وقلوبهم، والضَّمير هنا عائدٌ إلى المُخبَر عنهم وهم قوم عادٍ، وفي إضافة (الأكثَر) إلى ضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ تَسجيلٌ على أكثرِهم بالكُفر[1]. وهذا دأب أهل الكُفر في كلِّ زمانٍ، بأنّهم أكثر عددًا كما قال سبحانه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٨٢ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٣﴾ [النّحل: 82 - 83].

دلالةُ التَّعبيرِ بنفي الإيمانِ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم﴾:

توبيخُهم على عدمِ الإيمانِ وإيثارِهم الكُفرَ عليه

عبَّر عن أكثرِهم بنفي الإيمانِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ دون أن يُعبِّر بإثبات الكُفر إليهم؛ فلم يَقُلْ: (وكان أكثرهم كافرين) إبرازًا لصفة الإيمان وتقبيحًا لحالهم أنّهم لم يكونوا مؤمنين، وتوبيخًا لهم على ذلك، وأيضًا مَدحًا للقلّة منهم الّذين آمنوا، فكانت صفتهم هي الأجدر بالذِّكر والإبراز، كما يتحقّق التّقابُل بين النّفيَيْن في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ و﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ إذْ سَلْبُ الإيمان عنهم يُحقّق سببَ استحقاقِ العذاب عليهم، بخلاف ما لو جاء الكفرُ ثابتًا لهم؛ فإنّهم لا يُسلِّمون بكفرِهم وجحودِهم لقولهم مدحًا لما هم عليه: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، كما أفاد التَّعبير باسم الفاعل ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾ دون الفعل (قد آمنوا) رسوخَ صفة الإنكار فيهم وعراقةَ الجحود الَّتي رانت على أفئدتهم.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ اسمِ التّفضيل: ﴿أَكۡثَرُهُم﴾:

نفيُ الإيمانِ عن بعضِ مَن تظاهرَ به منهم

عبّر النظمُ بصيغة اسم التّفضيل في قوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ حين نفى عن أكثرِهم أن يكونوا مؤمنين، تنبيهًا على أنّ إيمان بعضِ مَن آمَن منهم لم يكن عن رسوخٍ وإنّما كان عن تظاهُر،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 142.

كما عبّر عنه قوله سبحانه: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾ [يوسف: 106][1].

معنى (الواو) في ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾:

العظَمةُ المقرونةُ بالرّحمةِ تُقابِل الضَّعفَ المُقترِنَ بالقَسوةِ

(الواو) في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ هي واو الحال؛ أيْ: والحال[2] والشَّأن أنَّ ﴿رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أو هي العاطفة، بأن تكون قد عَطفت هذه الجملة على سابقتها، وعلى كلٍّ من المعنيين أفادت الواوُ عِظَمَ العذاب النّازلِ بهم مع كمال الرّحمة والتَّهوينَ من شأن إنكارهم وجحودهم المُقترِن بالقسوة[3].

دلالة توالي المؤكّدات:

توالي المُؤكِّدات مُقرِّرٌ لكمالِ العَظَمَةِ والرَّحمةِ

توالت عدّةُ مؤكِّدات في جملةِ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لتقرير ما تضمنه وصفه سبحانه بالعزَّة والرَّحمة؛ وهي: تصديرُ الجملة بـ (إنَّ) التّوكيديّة، واسميّةُ الجملة، وإدخالُ اللّام على الخبر والإتيان بـ(هو) ضمير الفصل، ثمّ خَتْمُ الجملة بالوَصْفيْن الجليليْن ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ مُعرَّفيْن بالألف واللّام الدّالّيْن صيغةً على المُبالَغة بالوصف؛ فهذه كلُّها مؤكِّدات متلاحقةٌ سيقتْ في الجملة لتأكيد أنَّه سبحانه القادرُ على إهلاك مَن شاء وتقريره، وأنَّه إنْ أخَّر إهلاك الظّالمين فلِمَحض رحمته بهم بإمهالِهم لعلَّهُم يعودون فيُؤمنون ويشكرون.

لطيفةُ الذكْرِ بعنوان الرُّبوبيّة مضافاً:

الرَّبُّ يُشعرُ بالعظمةِ والرَّحمةِ مع الوعدِ

عَدَلَ النَّظْم عن الاسم العلم (اللّه) إلى وصف الرّبوبيّة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، تنبيهًا إلى أنّ إنعامه سبحانه ورحمته بعباده قد سبقا نِقمَتَه على عباده، وأنّ عفوه سابقٌ عقوبتَه،

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 14/ 11.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 14/ 11.
(3) الخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 19/ 109.

ولفظ الرَّبِّ يُشعر بالعَظَمَة والتّربية والقيوميّة، كما أنّه أُضيف إلى ضمير المُخاطَب العائد إلى النَّبيِّ الأكرم ﷺ للدّلالة على عناية الله تعالى به وتوصيله إلى درجات الكمال كما يُربَّى الولدُ حتّى يبلغ مرحلة النُّضْج والاكتمال، وفي ذلك وعدٌ خفيٌّ له ﷺ بالانتقام من الكُفّار القُساة؛ لكنّه يُمهلُهم برحمته ليُقيمَ عليهم الحُجَّة لعلَّهم يَرشُدون. "وفي التّعرُّض لوصف الرّبوبيّة مع الإضافة إلى ضميره ﷺ من تشريفه والعِدَة الخفيّة بالانتقام من الكَفَرة ما لا يخفى"[1].

دلالتا (اللّام) والضَّمير في قوله تعالى: ﴿لَهُوَ﴾:

جمعَ النظمُ الكريم في قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ بينَ اللّام والضَّمير، و(اللّام) هي اللّام المُزحلَقة، كاللّام في قوله سبحانه: ﴿لَآيَةً﴾، وهي تُفيد التّأكيد، والضَّمير (هو) إمّا أن يكون ضمير الفصل، لا محلَّ له من الإعراب[2]، وفائدته حينئذٍ التّوكيد مع الدّلالة على القصر، ويجوز أنْ يكون في محلِّ رفع مبتدأ، وما بعده خبرُه.

التّوكيد تقريرٌ للكلام وتعميقٌ للبيان

دلالةُ القَصْر في قوله: ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قصرٌ للصِّفة على الموصوف، فلا أحد يجمع بين صفتَي العزّة والرّحمةِ مع كامل القدرةِ المُطلَقة عليهما، والتّمكُّن المُطلق فيهما إلّا الله تعالى؛ فهو سبحانه عزيزٌ في رحمته، رحيمٌ في عزّته وقهره، وسائر مَن يكون فيه شيءٌ من هاتَيْن الصّفتيْن، فإنّه من العسير عليه أن يجمعَ بينهما؛ بل يغلِب عليه إحداهما، وبقدرٍ ضئيلٍ يُناسِب المَخلوقَ، أمّا الله تعالى؛ فله الكمال المُطلق في ذاته وصفاته وأفعاله.

للهِ تعالى الكمالُ المُطلق في ذاته وصفاته وأفعاله

دلالةُ التَّعريفِ بـ(أل) في قوله: ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

في تعريفِ المُسنَد في قوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بـ(أل) الدالّة

تعريفُ الطَّرَفيْن تحقيقٌ للمُراد

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 235.

(2) الخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 19/ 109.

على الجنسِ والكمال مع إيرادِ المُسنَد إليه مُعرّفًا بالإضافة ﴿رَبَّكَ﴾ دلالةٌ على القَصْر، وإثباتٌ للكمال المُطلَق لله في صفاته، ومنه ثبوتُه في هاتيْن الصِّفتيْن الجليلتيْن، كما يتناغمُ كلٌّ من المُسنَديْنِ مع المُسنَد إليه؛ إذ الرَّبُّ يوحي بالعزَّة والرَّحمة معًا، فناسبَ أن يُحكَم عليه بأنّه عزيزٌ رحيمٌ، وكأنَّ الصّفتيْن المذكورتيْنِ تصريحٌ بما عُلِمَ ضمنًا من وصف الرّبوبيَّة، كما أنَّ عذاب الاستئصال نزل بالمعذَّبين؛ فناسبتْه العِزَّة، ولم ينزل بالمؤمنين؛ فناسبته الرّحمةُ.

براعةُ ختمِ الآيةِ والقصّةِ بصيغتيْ فعيل:

التّماسكُ بين الصّفتيْن عزيزٌ في رحمته، ورحيمٌ في عِزَّته

قوله سبحانه: ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تذييلٌ لهذا الخبر بوصف اللّه بالعِزَّة على سبيل الكثرة؛ أيْ: تمام القدرة، فتَعلمون أنَّه لو شاء لعجَّل لهم العقاب، وبوصفه بالرَّحمة على سبيل المُبالَغة، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ في إمهالِهم رحمةً بهم لعلَّهم يشكرون، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ﴾ [الكهف: 58][1] وفي الجمع بين هاتيْن الصّيغتيْن الدّالّتيْن على المبالغة والكثرة ما يدلُّ على التّماسك بين الصِّفتيْن الجليلتيْنِ؛ فهو سبحانه عزيزٌ في رحمته كثيرًا، ورحيمٌ في عزّته وقهره كثيرًا أيضًا.

وجهُ مناسبةِ العزَّة للرَّحمة:

سرُّ الجمعِ بين الصِّفتيْن في دفع توهُّم التَّناقض بينهما

جمع سبحانه في قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بينَ هاتيْن الصِّفتيْن لما قد يُتوَهَّم أنَّ بينهما تضادًّا، وأنَّ العزّة تُنافي الرَّحمة، والرَّحمةَ كذلك تُنافيها، فكشَف اللّه تعالى بذِكْرهما معًا أنَّ عزّته سبحانه لا تُنتِجُ القسوة الظّالمة؛ فهي العزّة العادلةُ؛ بل العزّة المُقترِنة بالرّحمة؛ لأنَّه سبحانه غنيٌّ عن الظُّلم، لكنَّها في نفس الأمر عزّةٌ تُثبِّت مظاهر الهيبة والجلال الإلهيّ في النّفوس، وكذلك رحمته لا تعني بحالٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 102.

التَّهاون والمساواةَ بين المؤمنين وغيرهم، والمُصلِحين والمُفسِدين؛ بل هي الرّحمة العزيزة العادلة؛ بل المتفضِّلة حسبما تقتضي حكمتُه سبحانه، وبذلك يَظهَر أنَّ سرَّ التَّناسُب في الجمع بين الصّفتيْن هو دفع تَوَهُّم وجود التناقُض بينهما، بحيث يُتوَهَّم تنافي اجتماعِهما في موصوفٍ واحد، ومعروف أنَّ صفاته سبحانه تجمع بين مَظاهِر الجلال ومظاهر الجَمال، وفي كُلٍّ بلغ الكمالَ الَّذي يليق بذاته المقدَّسة، كما تلاءَمَ ذِكْرُ الوصفيْن مع وصف الرّبوبيّة، وأنَّ العذاب لم ينزل إلا بأكثرهم في حين نالت الرّحمةُ المؤمنين منهم.

نكتةُ التّرتيب بين الصّفتين: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

قُدِّمت صفةُ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على صفة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لأنّه لو لم يُقدّمه في السّياق هنا لكان ربما قيل: إنّه رحِمهم فلا يتناسَبُ مع الإهلاك الوارد بدايةَ القصة؛ فأزال هذا الوهم بذِكْر العزيز وهو الغالب القاهر، ومع ذلك فإنّه رحيمٌ بعباده، ولا يَخفَى أنَّ الإهلاك تقدَّم ذِكْرُه على ذِكْرِ الأكثريَّة منهم في عدم الإيمان الدّالِّ بالفَحْوى على أنَّ القليل منهم آمنوا فرُحموا؛ فناسبَ السّياقَ تقديمُ العِزَّة على الرَّحمة.

لو رحِمَهم ابتداءً لما عذّبهم، ولأنَّ المَقام مقامُ إظهارِ القُدرة

وأيضًا فإنّه لمّا كان المقامُ مقامَ بيانٍ للقدرة الإلهيّة؛ كان من الأنسَبِ تقديمَ صفة العزَّة على صفة الرّحمة؛ فالرّحمة إذا كانت عن قدرةٍ؛ كانت أعظمَ وقعًا، والمعنى أنَّه عزَّ في نِقمتِه من الكُفّار، ورحِم مؤمِني كلِّ أمّةٍ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأوَّل والسّابق:

أصلُ السّبق التّقدُّمُ في السّير، ثُمّ أُطلِق مَجازًا في غيره من

(الأوَّلُ) دالٌّ على ابتداءِ الأمرِ، و(السّابقُ) على السَّبق في التّرتيب

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 142، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 492.

التّقدّم، فيُستعار للسَّبق في التّرتيب، ولإحرازِ الفضل والتّبريز، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ [الواقعة: 10]؛ أي: المُتقدِّمون إلى ثواب الله وجنَّته بالأعمال الصّالحة[1].

وأمّا كلمة (الأوَّل) فإنّها تدلُّ على ابتداء الأمر[2]؛ أيْ: الابتداء في الزَّمان، ثم صار يُطلَق مجازًا على غيرِه، كما يُطلَق على الأوّليّة في التّرتيب ونحو ذلك؛ وعلى ذلك فالألصَق تعبيرًا عن الأوَّليّة والقِدَم في الزّمان هو لفظ (الأوَّلين) لا (السّابقين)؛ ولذلك آثَرَ القرآن الكريم دائمًا استخدام لفظ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كما في قوله سبحانه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ لدلالته المباشِرة على المُراد؛ أيْ: الأسلاف الأوائل الّذين قضَوا ومَضَوا، في حين أنَّ (السّابقين) يدلُّ على المُتقدِّمين؛ سواءٌ كان التقدُّمُ زمانيًّا أو رُتْبيًّا ولو مِن المتأخِّرين، فبينهما علاقةُ العموم والخصوص المُطلَق، فكلُّ أوّلٍ سابقٌ، وليس كلُّ سابقٍ أوّلَ.

الآية والعلامة:

لـفـظ (الآيــة) أدلّ وأشـمـل مـن (الـعـلامـة) وغيرها

يستبطِنُ لفظُ (الآية) معانيَ كثيرةً، من أخصِّها معنى (العلامة)؛ لأنَّ الآية علامةٌ على صدقِ مَن أتى بها وعلى عَجْزِ المُتحدَّى بها مع ظهورها ووضوحها، وقيل: لأنّها علامةٌ على انقطاع ما قبلَها من الكلام وانقطاعِه ممّا بعدها[3]. كما تتضَمَّن أيضًا معاني (البرهان والدّليل والعلامة) وغير ذلك، ومن هنا يُؤثِرُ القرآن الكريم التَّعبيرَ بلفظ الآية لشموله هذه المعاني جميعَها، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ متضمِّنٌ لكلِّ هذه المعاني المذكورة من (العلامة) و(الدّليل) و(البرهان)، ولو قال (إنَّ في ذلك لعلامةً) لنقَصَ المعنى عن المُراد؛ لأنَّها قد

(1) الرّاغب، المُفردات: (سبق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أول).
(3) السّيوطيّ، الإتقان: 1/ 230.

تكون خفيَّةً وموهِمةً، فضلًا عن تميُّز إيقاع كلمة (آية) على الأُذُن في السّياق الكريم.

العزيز والغالب:

العـزيـز القاهر المتُفرِّد، والغالب القاهر فحسْب

"أصلُ (عزز) في الكَلام يعني الغَلَبَة والشِّدّة، يُقال: عزَّني فلانٌ على الأَمر إذا غلبني عليه، ويُقال: عزَّه يعزُّه، واللّه تَعالَى هوَ الغالِب على كلّ شَيْءٍ؛ فهوَ العَزيز الَّذي ذلَّ لعِزَّته كلُّ عَزيز"[1]، هذا النَّص من الزَّجّاج يَشي بالتّداخل بين لفظي (العزيز) و(الغالب)، وهكذا عرَّف العسكريُّ (العزيز) بأنَّه: "الغالب الَّذي لا يَفوتُه شيءٌ، ولا يُعجزهُ شيءٌ"[2]، وهذا ما مال إليه المفسّرون، قال الفخر الرّازيّ: اعلَم أنَّ العزيز هو الغالبُ الشَّديد، والعزّةُ هي الغلبة والشدّة[3]. وفي موضع آخَر أشار إلى سَعة لفظ (العزيز) بحيث يشمل معنى الغالب، ومعنى الَّذي لا مثل له، فقال: العزيز له تفسيران؛ **أحدُهما:** الغالب، فيكون معناه القادر الَّذي لا يُساويه أحدٌ في القدرة، **والثّاني:** الَّذي لا مِثل له[4]. وبهذا تكون خصوصيَّة لفظ (العزيز) في سَعة معناه، بحيث يدلُّ على تفرُّده سبحانه بالغَلَبة والعزّة والقهر؛ فلا شبيهَ له في قهره ولا مثيلَ له في غلَبته، ولذلك يُؤثِر القرآن الكريم التَّعبير باسم اللّه (العزيز) لدلالته على التفرُّد المطلَق في شدَّته وقوّته، والغلبة معنًى من معانيه، واسم اللّه (العزيز) هو المتَّفَق على كونه من أسمائه الحسنى، بخلاف اسم (الغالب) ففي كونه منها خلاف.

(1) الزّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 33.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 110.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/ 178.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 483.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والثلاثون،
سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 39 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-84-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 39 : المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-84-6
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8468153 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»